عز الدين ابو شيخار

المرأة العربية المعاصرة

الانتماء الحضاري والبعد السيكولوجي

المرأة العربية المعاصرة

الانتماء الحضاري والبعد السيكولوجي

عز الدين البوشيخي

الطبعـــــة الاولى

جمادى الثانية 1404 - مارس 1984

بسم الله الرحمان الرحيم

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

حقوق الطبع محفوظة

مطبعة مكاتب مكناس

اهـــــداء

– الى قلبيــن كبيرين تربيت في حضنهما ، فأشبعاني عطفـا وحبـا ورعـايــة وتقـديــرا : امــي وأبــي .

– والى كل قلب كبيــر ينفتح لمن ذاقوا مرارة الحيــاة ، ويضمهم اليه ، ويغمرهم بما لديه من الحنان الدفاق والعاطفــة الصادقة والعمل الكــريــم .

– والى كــل قلب كبير يضمد الجروح ، ويمســح الدمــوع ، ويساهم في رفــع الكــرب ودفع الضرر ببراءة وصدق نيــة .

– والى كل قلب كبير يضحي بالغالي والنفيس من أجل من أشرفوا على الهلاك مادامــوا ينتمون لادم عليه السلام ومادامــت الروح فيهــم تدفعهــم الى الامــام .

مقدمـــة

في كل يوم كنت ألحظ الآلام من حولي تتفجر ،
في كل يوم كنت أرى شظايا القلوب تتطاير ،
في كل يوم كانت المجاثن البشرية تتراكم ، بعضها فوق بعض:
النفـوس منهـا جريحـة ،
والقلوب منهـا كسيـرة ،
والعيـون منها دامعة ،
والروح مهيضـة الجنـاح .
هذه الصورة كنت أحملها ، وكانت تمارس على نفسي وفكري وشعوري ضغطا قويا يعزى اليه انبثاق فكرة هذا البحث :
« المرأة العربية المعاصرة : الانتماء الحضاري والبعد السيكولوجي »
الذي أعلنت * الجمعيـة المغربيـة للمستقبلية ** عن تنظيم مباراة للشباب المغربي الناشئ ـ الذي لا يزيد سنه عن العشرين ـ وكانت النتيجة أن نال هذا البحث الجائزة التشجيعية .. وتواردت علي رسائل ، طلب مني اصحابها امدادهم بنسخ منه . ومن ثم

---

* كان ذلك سنـة 1982
** وهي جمعيه تضم رجالات الفكر في شتى فروعه ، وتولـي اهتماماتها بالدراسات المستقبلية في المغرب .

عزمت على طبعه ونشره حتى أستطيع تغطية جميع الرغبات ، وقد لجأت طبعا الى ادخال تعديلات عليه من شأنها أن تجعله في مستوى الطبـــع والنشـــر .

هذا البحث يحاول تسليط الضوء على النظرية الفرويديـــة في جانب أخذها موضوع المرأة ، ينقدها من الداخل ، ويمحصهـا بوضعها على محك الواقع الاجتماعـي .

ثم ينطرق الى مقارنة وضعية المرأة الغربية المعاصـــرة بتلك التي عليها المرأة العربية المعاصرة ليصل الى المثبطات التي تتعرض لها هذه الاخيرة من المجتمع / الرجل ، ومن بعـض الاطروحات التي تحاول تكريس الازمة بشكل أعمـق .

وفي الاخير يقدم اقتراحا يمكن أن يخرج المرأة المعاصرة من أزمتها ، هذا المقترح لا يعدو كونه أرضية صالحة للانطلاق .

والبحث يخاطب بالاساس المرأة العربية المعاصرة ، ولفـظ المعاصرة ـ بصيغة اسم الفاعل ـ يتجاوز المفهوم الزماني ليحتوي مفهوم مسايرة الركب الثقافي الجديد .

والعنوان يشير الى أن حمل تصور ما لحضارة ما ، يؤدي بالطبع الى اقتفاء اثارها على النفس والفكر والسلوك . أو بمعنى اخر ان البعد السيكولوجي هو امتداد طبعي لكل انتماء حضاري .

وفي هذا الصدد لابد من الاشارة الى أن العناوين الصغرى التـــي تتخلل البحث انما وضعت لضرورة منهجية ـ تسهيل القراءة ـ ولا تعني بحال تقسيـم الموضوع الى فقرات منقطعة ، فهـو من

هذا الجانب متماسـك .

وتجدر الاشارة الى أنني حافظت على نقل عدد من النصوص بحرفيتها وبما يحمل بعضها من أخطاء لغوية أكلها الى الحدس اللغوي للقارىء . وقد كنت أهدف من سـرد تلك النصوص تقريـب القارىء الى جوهر الموضوع بكل ما ينطرح حوله من مفاهيـم وتصورات . كما لجأت الى ضبط المصادر والمراجع التي اعتمدها البحث في الهوامش ضبطا مفصلا مرة واحدة (ذكر العنوان والمؤلف أو المترجم والطبعة والمطبعة والسنة) وتجنبت تكرار هذه التفاصيل مكتفيا بالاشارة الى عنوان المرجع أو المصدر .

وفي الاخير لا يسعني الا أن أتقدم بجزيل الشكر لكل من تقدم الي بنصـح أو توجيـه أو نقـد .

عز الدين البوشيخي

مدخـــل

ان المتأمل لوضعية المرأة العربية المعاصرة يدرك أنها لا تعيش وفق معطياتها الطبيعية على كل الاصعدة والمستويات . ويدرك أنها تعيش أزمة في نفسها ، وفي فكرها ، وفي تصورها ، وفي سلوكها ، وفي واقعها . ويدرك كذلك أن شروطا موضوعية أخرى ساهمت في تأزيم وضعيتها بجانب مسؤوليتها الذاتية .

هذه الشروط الموضوعية والذاتية تفاعلت لتخلق في الاخيـر عجائن بشرية نسائية متراكمـة .

وفي محاولة لكشف الاليات التي تكمن وراء تحريك أزمة المرأة ـ المرأة بمفهومها الواسع كجنس ـ ، ولوضع اليد على الاطـار النظري الذي تتحرك داخله هذه الازمة ، جاء هذا البحث وهو يفترض أن الاطار النظري الذي يطوق أزمة المرأة العربية المعاصرة يقارب الاطار النظري الذي يطوق أزمة المرأة الغربية دون اهمال حيثيات كل واقع على حـدة .

وحينما نأخذ النظرية الفرويدية ارضية لذلك الفرض لا يعني ممارسة أي شكل من أشكال التجوز المنهجي أو القفز المعرفي او الاسقاط النظري . ويبدو أن أي ابهام يزول اذا اعتبرنا أن المرأة الغربية المعاصرة التي تعيش وفق معطيات النظريـــة

الفرويدية هي النموذج المحتذى عند المرأة العربية المعاصرة ، وهو اعتبار يجد سنده في الواقع المحسوس . وبفعل انتماء هذه الاخيرة الحضاري الى الغرب ، ورثت عن نموذجها المحتذى أزمة في فكرها وتصورها وسيكولوجيتها وسلوكها .

ومن ثم فان أي حديث عن واقع هذه الازمة يستلزم تفكيكا لعناصر البنية النظرية التي تقوم عليها ، ومن ثم كذلك تستمد مشروعية الحديث عن النظرية الفرويدية في جانب أخذها موضوع المرأة ومناقشة الاسس التي انبنت عليها .

فقد أحدثت المنظومة الفرويدية انقلابا جذريا شمل المفاهيم والتصورات والمعتقدات ، واستطاعت أن تقتحم جل ميادين المعرفة الانسانية ، ذلك أن « تغلغل أفكار التحليل النفسي الى الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ ، والاثنوغرافيا والفن والحقوق يدل على أن التصورات الفرويدية النظرية تندمج في الحياة الروحية للمجتمع البورجوازي المعاصر ... فالكتب الفرويدية الادبية والعلمية تحظى اليوم بطلب كبير وشعبية كبيرة ...» (1) الى درجة أن القراء ـ كما يقول R. Lapiere ـ « قد أصبحوا مرضى نتيجة لقراءاتهم المستمرة للكثير من روايات وقصص التحليل النفسي » (2). ومن ثم أصبحت النظرية الفرويدية ثقافة ، واتخذت مداها

ـ 1 : مذهب التحليل النفسي وفلسفة الفرويدية الجديدة ص 17 تاليف نالبري ليبين (، دار الفارابي 1981.

ـ 2 : نفس المرجع السابق ص 17 .

الخطير في الحياة الانسانية ، حيث ان الانسان المعاصر أصبح محاصرا من طرف الثقافة باوسع معانيها . هذه الثقافة التي يعزى اليها النصيب الاكبر في تحديد نفسية الانسان وتوجيهه سلوكيا واخلاقيا .

ان لهذه النظرية من تاثير في حياة الناس العامة والخاصة يجعلها تصطبغ بنوع من الخطورة ، هذه الخطورة التي قد تصل الى ما يقوله R. Lapiere : « واذا ما استمرت المؤسسات العدلية في المستقبل بالاسترشاد بالاخلاق الفرويدية فان أولئك الذين لا يزالون يحترمون القانون ويتمسكون بالنظام الى حد ما يمكن أن يتحولوا ـ حسب رأي بعض الاختصاصيين ـ الى مجرمين لا تطالهم يد العدالة نتيجة للاعتراف بانهم شاذون من الناحية النفسية ، وبالتالي يغدو المجتمع القائم مريضا حقا » (3).

وحينما يصبح لنظرية ما مثل هذا الوزن ، وحينما تصل انعكاساتها الى الواقع الاجتماعي فانه يصبح ملزما البحث في مدى علمية هذه النظرية .

ولعل الوضعية المتازمة التي تعيش عليها المراة الغربية تستند في جانبها النظري الى المنظومة الفرويدية . ولعله كذلك لم تكن المراة بوجه خاص اقل تاثرا من غيرها ، بل ربما كانت هي الضحية الاولى . ان تلك الاشارات العارضة لا يتم لمسها عن قرب ، ولا

ـ 3 : نفس المرجع السابق ، ص 16

يمكن أن تتخذ صبغتها المشروعة الا من خلال كشف البنيـــة الدلاليـــة في علاقتها مع الالية المنهجية الكامنة في شبكـــة الطرح الفرويدي لتحديد القيمة العلمية التي يقوم عليها النص .

وتجدر الاشارة الى انه سيتم الاعتماد في مناقشة النظريـــة الفرويدية في جانب أخذها موضوع المراة على المؤلف المعتمـــد في التحليل النفسي «تفسير الاحلام» ـ هذا الكتاب الذي عرف انتشارا واسعا صحبته ضجة اعلامية كبرى بعدما ظن فرويد نفسه أن كتابه هذا لم يبق له الا «أن يندثر في صمت مطبق» (4) نتيجة للاستقبال السيء الذي لاقاه عند صدوره من معاصري فرويد من العلماء ـ (5) وذلك لاعتبارات ، منهـا :

أولا : ان صاحبه معجب به الى حد قوله : «انه حتى فيما أرى اليوم يحوي أثمن الكشوف التي شاء حسن الطالع أن تكـون من نصيبي ، فمثل هذا الحدس لا يأتي العمر مرتين» (6) .

ثانيا : ان هذا المؤلف باجماع الباحثين في التحليل النفسي

---

4 : تفسير الاحلام ص 7 ، تاليف سيجموند فرويد ترجمة مصطفى صفوان ، راجعه مصطفى زيـــور ، دار المعارف بمصـــر .

5 : نفس المرجع السابق ص 11 ، حيث يعلق البروفســـور ليمان الاستاذ بجامعة برلين قائلا : «لقد انتصرت (في هـــذا الكتاب) الافكار الخيالية للفنان على الباحث العلمي» .

ـ 6 : نفس المرجع السابـــق ص 7

خير ما كتبــه فرويد وأكثر أصالــة (7) .

ثالثا : انه يشتمل على الاوليات التي اعتمدتها النظريـــة الفرويدية . هذا، وسيتم الاستناد على بعض مؤولات فرويد الاخرى مع عدم اهمال الانتقادات الموجهة اليها والـى شخص فرويـد .

كما ستتم هذه المعالجة من خلال اثبات النصوص واستنطاقها أملا في تقريب الاطار النقدي ـ الذي ستوضع داخله هذه النظرية ـ الى القارىء الكريـم .

---

7 : نفس المرجـع السابق ص 7

نقد النظرية الفرويدية

أستهل بالقاعدة الاساسية التي بنى عليها فرويد نظريته حول المرأة . يقول في «تفسير الاحلام» : «وأنا هنا (8) أشير الى اسطورة الملك أوديب والى مسرحية سوفوكليس التي تحمل اسمه : ولد أوديب من لايوس ملك طيبة ومن زوجه يوكاستا ، وألقى به الى العراء وهو بعد رضيع ، لان نبوءة أعلمت لايوس ـ وابنه مازال بالرحم ـ أن ابنه هذا سوف يكون قاتله . الا أن منقذا أنقذه ، وشب الطفل وليا للعهد في بلاط أجنبي الى أن خامره الشك في اصله ، فراح بدوره يستفسر العرافة فأنذرته اياه والاقامة في وطنه . فقد قضي عليه أن يقتل أباه وأن يأهل أمه . وبينما هو نائم على وجهه في طريق يبعده عما يظن أنه وطنه ، اذا هو يلتقي بالملك لايوس فيصرعه في قتال نشب على غرة . وأقبل بعدها الى طيبة ، وهناك حل لغز ابي الهول (9) الذي كان يعترض

ـ 8 : في معرض حديثه عن الاحلام الطفلية النمطية .

ـ 9 : لغز أبي الهول في أشهر صيغه هو الاتي : من ذا الذي اذا طلع النهار سار على أربع ، فان انتصف فعلى اثنتين ، فان ضرب الى المغيب فعلى ثلاث ، والجواب هو الانسان الذي يستند الى العصا في شيخوخته ، تفسير الاحلام ص 277.

الطريق الى المدينة . فنصبه الطيبيون ملكا عليهم عرفانا منهم بجميل صنعه ، وأهدوا اليه يد يوكاستا . وظل أوديب يحكم دهرا امنا معززا . وأعقبت له أمه المجهولة منه ولدين وابنتين ، الى ان نزل وباء فكان سببا في ان يذهب الطيبيون في سؤال العرافة من جديد . وهنا تبدأ مأساة سوفوكليس (10) : يعود الرسل بهذا البلاغ : ينقطع الوباء اذا ارتحل قاتل لايوس عن الديار ،

---

(1) : علق الدكتور فاروق أحمد الدسوقي على هذه المسرحية في مقال نشره بمجلة المسلم المعاصر قائلا : «لقد اختار سوفكليس اليوناني أبشع الجرائم التي يمكن أن ترتكب على ظهر الارض : وهما قتل الوالد ونكاح الام ، وحاول أن يثبت وقوعها منه رغما عنه ، ليقول ما ذنب أوديب فيما فعل ؟ ألم يكن مكتوبا ومقدرا عليه من قبل ؟
ومن ثم يعطي بذلك لمن يفعل أي جريمة المبرر الذي يتبرأ به من مسؤوليته الخلقية ...
وكأن المسرحية ـ يشاركها في ذلك كثير من مسرحيات وروايات التراجيديا الغربية قديما وحديثا ـ تريد أن تقول للانسان انه عندما يبدو أمامك طريقان للاختيار ، فانك حينما تختار أحدهما فان أيا ما اخترت فانه يؤدي بك الى مأساة وان ما يبدو لك اختيارا حرا ، انما هو جبر مقدر عليك»
مجلة المسلم المعاصر عدد 33 ص 13 سنة 1983 .

عادة مطامح أخرى . والبلاغ الحالك الذي ينحدر الينا عبر الملاحم والاساطير عن العصور الاولى للمجتمع الانساني يرينا ما لا تطيب له النفس من مطلق سلطان الاب ومن قساوته في مزاولة هذا السلطان. فكرونوس قد التهم أبناءه مثلما يفعل الخنزير الوحشي بخلف انثاه . وجاء زوس فأخصى أباه ، ونصب نفسه سيدا في مكانه ، وكلما خلا سلطان الاب في العائلة من كل قيد ، وجد الابن نفسه بالضرورة ـ وهو الوريث المنتظر ـ في موقف العدو من ابيه ... واما البنت وامها فتنشأ فرص النزاع بينهما حين تشب البنت فترى في امها رقيبا عليها ، على حين تطمح هي الى الحرية الجنسية

هذا بينا ترى الام من ناحيتها في تفتح ابنتها نذيرا ينذرها أن قد حان وقت النزول عن مطالبها الجنسية» (15) .

ويعقب بقوله : «ان هذا الفرض يتأيد تأييدا لا يتطرق اليه ادنى شك بالنسبة الى العصابيين الذين يأخذون في التحليل النفسي. فنحن نعلم عندئذ أن رغبات الطفل الجنسية ـ اذا كانت هذه الرغبات تستحق هذا الوصف وهي لا تزال في طورها الجنيني ـ تنشأ منذ وقت مبكر ، وأن أول نزوع الفتاة يكون لابيها كما تتجه رغائب الولد أول ما تتجه الى أمه ، وبذلك يصبح الاب للولد مثل الام للبنت ـ مزاحما مزعجا » (16) .

ـ 15 : تفسير الاحلام ص 272 ـ 273

ـ 16 : تفسير الاحلام ص 273 ـ 274 .

وفرويد قد استند في تثبيت هذه النتيجة الاخيرة من خلال امرين اثنين : اولهما : تحليل احلام طفلية نمطية محتواها موت الاقربـاء المحبيين . «اذا راى طفل ما يدعوه الى ان يتمنى غياب شخص اخر فليس ما يمنعه من ان يلبس امنيته هذه لبوس الرغبة في المـوت» (17).

ثانيهما : الاتكاء على تجاربه مع العصابيين ولو على حساب منهجه التحليلي ـ كما سيأتي الحديث عن ذلك فيما بعد ـ يقول : «وتشهد خبرتي ـ وهي خبرة بلغت مدى واسعا ـ بان الوالدين يقومان بالدور الرئيسي في الحياة النفسية الطفلية لكل من صار في مستأنف حياته عصابيا . فمحبة أحد الوالدين وكراهية الاخر من المقومات الجوهرية في خزانة الاندفاعات النفسية التي تتكـون في ذلك الوقت والتي تملك أكبر الاهمية في تشكيل أعراض العصاب الذي يجيء بعـد ذلـك» (18) .

تأسيسا على ما سبق يقرر فرويد رأيه في المرأة على هذا المنوال :

1 ـ ان الرغبات الجنسية تعتبر أساسا للرغبات الاولية وقوة محركة للاشعور ، بل «ان الرغبات الجنسية تشارك بمشاركة مباشرة في خلق القيم العليا الثقافية والفنية والاخلاقية والجمالية والاجتماعية للنفس البشرية» (19) . ومن ثم فالطاقة الجنسية هي المحـرك

ـ 17 : تفسير الاحلام ، ص 271

ـ 18 : تفسير الاحـلام ص 276 .

ـ 19 : مذهب التحليل النفسـي ص 43 .

الاساسي في الانسان (20).

2 ـ اعتبر فرويد ان الليبيدو (الرغبة الجنسية) «ذو جوهر ذكوري» (21) بمعنى أن المرأة لا تملك أعضاء الجنس الحقيقية ، وهي بذلك تتمنى في اللاشعور ان تصير رجلا . «ان كون البنت تدرك حقيقة أنها لا تملك قضيبا لا يعني أنها تتقبل فقدانه تقبلا هينا ، على العكس ، انها تتعلق لمدة طويلة بالرغبة في أن تملك شيئا مثله ، وتعتقد بامكان ذلك عدة سنوات ، وحتى عندما تكون معرفتها بالواقع قد قادتها منذ زمن الى أن تهجر هذا الامل وتعتبره مستحيلا نجد أن التحليل يبرهن ان هذه الرغبة لا تزال قائمة في

ـ 20 : في هذا الصدد تجدر الاشارة الى أنه تفرعت بعض الاتجاهات عن نظرية فرويد كمدرسة يونغ في السيكولوجيا التحليلية ، واتجاه ادلر في السيكولوجيا الفردية ، ومذهب ويلهلم رايش في السيكولوجيا الاقتصادية ـ الجنسية .
كما حاول اخرون (الفرويديون الجدد) اعادة النظر في الافكار الرئيسية لنظرية التحليل النفسي وتجديدها عبر تفسير عوامل الوظائف النفسية الداخلية للشخصية وكشف الجوانب الاجتماعية ـ الاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية في حياة المجتمع .
ولعل جاك لاكان أبرز المعاصرين الذين حاولوا اعطاء نفس جديد لنظرية فرويد بقراءتها من منظور التحليل اللسني البنيوي .

ـ 21 : حسب تعبير جوزيت زوين في مقال «المرأة في ضوء نظريات التحليل النفسي «ترجمة الدكتور فؤاد شاهين ، مجلة الفكر العربي عدد 17ـ18 ص 48 سنة 1980 .

العقل الباطن محتفظة بقدر حسن من الطاقة (22) . تلك الرغبة الكامنة في العقل الباطن هي التي تفسر ـ في زعمه ـ نظرة الام الخاصة الى ابنها الطفل ، حيث «ان الام تستطيع أن تنقل الى ابنها الامل الذي كان عليها أن تكبته هي في نفسها ، وأن في استطاعتها ايضا ان ترجو أن تحصل منه على الارضاء لما تبقى لها من عقدتها الذكرية» (23) .

ونتيجة ذلك أن المرأة تختزل كل ماهي سلبي ، ولا تساهم في قيام الحضارة الانسانية بشيء .

3 ـ وانطلاقا من تلك الرؤى فالمرأة ـ في نظر فرويد ـ لا ترى نفسها الا من خلال الرجل ، بمعنى أنها لا تملك استقلالا ذاتيا في تقييم وضعيتها النفسية والجنسية والاجتماعية .

4 ـ وأخيرا يقرر أن البنية النفسية للمرأة بنية معقدة بحكم طبيعتها الانثوية . «أن اكتشاف الانثى لعقدة الخصاء فيها نقطة تحول هامة في حياتها ، وانما ينشعب منها ثلاثة مجار من التطور : أولها يعود الى الكبح الجنسي أو العصاب Neurosis ، وثانيها يقود الى تعديل الخلق باتجاه العقدة الذكرية Masculinity Complex ، وثالثها يقود الى الانوثة السوية» (24).

ـ 22 : سيكولوجية النساء ص 34 ، تأليف سيجمونة فرويد ، السلسلة السيكولوجية 17 ، دار العلم للملايين .

ـ 23 : نفس المرجع السابق ص 46 .

ـ 24 : نفس المرجع السابق ص 35 .

وهكذا يطوق المرأة بهذه المراحل التطورية ، بل يجعلها خصائص ثابتة في حياتها النفسيـة .

وبعد أن قدم فرويد نظريته حول المرأة ـ والتي حاولـت تكثيفها في النقاط الاربع السابقة ـ عاد ليقول في بساطة البريء : «هذا ما أردت أن أقوله في سيكولوجية النساء. وانا اسلم بأنـه ناقص الى حد بعيد ، وأنه يبدو في بعض الاحيان بعيدا جدا عـن المـديـح» (25) .

وقبل الذهاب بعيدا في تحليل هذه المعطيات الفرويدية ارى لزاما تحديد الاوليات النظرية ومناقشتها من خلال تلك النصوص التي سقتها مع الاعتماد في تحليلها على ما ذكره فرويد نفسه عـن حياته الشخصية ، وما لقيه من صعوبات في نسج بحثه ، ومـا بدر منه من زلات تكشف جوانب هامة من الدوافع النفسية وراء طرحه النظـــري .

1 ـ انطلق فرويد من فرضية مفادها أن اللاشعور هو النواة المركزية في الحياة النفسية ، وأنه مشحون بالرغبات الموروثـة بيولوجيا ، وأنه الموجه الاساسي لكل نشاط بشري ، فهو «الواقع النفسي الحقيقي ، وهو في طبيعته مجهول منا نجهله قدر جهلنـا بحقيقة العالم الخارجي كما أنه لا يمثل لنا بوساطة معطيات الشعور الا مثولا ناقصا على نحو ما يمثل العالم الخارجي بوساطة رسائل

ـ 25 : نفس المرجـع السابق ص 46 .

أعضائنا الحسيـة» (26).

تلك الرغبات الجنسية التي تكون اللاشعور والتي يمثلهـا الهو في الجهاز البنيوي النفسي ـ تسير بتلقائية وعشوائيةهادفة الحصول على اللذة القصوى ، ومن ثم «جعل (فرويد) اللامعقـول يسكن عالم اللاشعور ، وأعطى للاشعور سلطةقيادية على الشعور ، وبذلك جعل الانسان خاضعا لقانون حتمي يفرضه عليه جـذره اللاشعوري الذي يؤلف أساس تاريخه النوعي والفردي» (27) .

ان هذه النظرة الوظيفية البنيوية للشخصية الانسانية ـ كما يحددها فرويد ـ تعصف بالاستقرار النفسي للانسان ، وترمي به على مدى حياته في مهب الصراع بين المنظومتين النفسيتيـن الشعورية واللاشعورية ، وتكرس في ذاته الفراغ الروحي الـذي يذوق منـه الامريـن .

ويعود فرويد بعد كل ما قرره فيما يخص اللاشعور ليقول : «وها السؤال : هل ينبغي ان نضيف الـى الرغبات اللاشعوريـة صفة الواقع ؟ فهذا ما لا أستطيع ان أقطع فيه بحرف» (28) ومن ثم «يبقى مثله في ذلك مثل غالبية الفلاسفة عاجزا عن أن يقول ماهو اللاشعور . ان هذا وحده يدفع المرء الى الشك بعلمية مذهب

ـ 26 : تفسيـر الاحـلام ، ص 595 .
ـ 27 : مطاع صفدي في مقال «اللاشعور بين الاجراء والسلوك» مجلة الفكر العربي المعاصر ، عدد 23 ص 12 سنـة 1983 .
ـ 28 : تفسير الاحلام ص 601 .

التحليل النفسي الفرويدي ككـل» (29) .

ـ اعتبر فرويد أن الحلم مظهر من مظاهر المادة المقموعة الكامنة في اللاشعور (30) . وبنى فرضية أخرى تفيد أن الحلـم في جميع الحالات «تحقيق رغبة لانه ناتج عن النظام اللاشعوري الذي لا يعرف نشاطه هدفا اخر غير تحقيق الرغبة والذي لا يملك قوى أخرى سوى الاندفاعات الراغبـة» (31) .

ويحق لنا ان نتساءل (32) : اذا كان فرويد قد اعتمد على الاحلام باعتبارها مظهرا من مظاهر المادة المقموعة في الكيان الانساني لتفسير النزوع الجنسي نحو الام والشعور بالبغضاء والدمار نحو الاب . فما هو المقياس العلمي الذي يجعلنا نرتاح الى تفسيـرات فرويد للاحلام بطريقته الخاصة دون أن نسم عمله بالتعسف ؟ خاصة وقد صرح بنفسه غير ما مرة بعجزه وقصوره عن الاتيان بتفسير كامل للحلم يقول : «ولقد سنحت لي الاشارة من قبل الى كوننا لا نستطيع أن نستيقن ابدا من ان هذا الحلم او ذاك قد فسر تفسيرا كاملا ، فاحتمال ان يكون للحلم معنى اخر غير الذي كشف

ـ 29 : مذهب التحليل النفسي ص 37 ـ 38

ـ 30 : راجع تفسير الاحلام ص 591 .

ـ 31 : تفسيـر الاحلام ص 557 .

ـ 32 : يقصد من تغيير مستوى الخطاب من أنا الى نحن اشراك القارىء في طرح تساؤلات نقدية وتتبع مداها المعرفي والمنهجي

احتمال يظل قائما دائما حتى ولو بدا الحل مقنعا لا خلل فيه» (33).

ويستطرد قائلا في جهة أخرى : «ولكننا ما أن نبتغي التعمق في العمليات النفسية التي يتضمنها فعل الحلم حتى تسلمنا كل الطرق الى الظلمة . فما لنا من قوة على تعليل الاحلام من حيث هي عملية سيكولوجية ، لان تعليلك شيئا يعني رده الى معلوم سابق ، ولسنا في الوقت الحاضر نملك معرفة سيكولوجية موطدة نستطيع ان ندرج تحتها ما نعلم بالفحص السيكولوجي للاحلام انه أساس تعليلها » (34) .

واذا اعترف فرويد نفسه انه لا يستطيع التدليل على احقية هذا التفسير او ذاك لحلم معين ، فكيف يدّاوعنا فكرنا في ان نثق بالمجموعة الكبيرة من الاحلام التي فسرها حسب هواه ليخلص في الاخير الى ان الحلم ــ اي حلم ــ هو تحقيق رغبة هذه الرغبة التي تنشا في كل حالة من اللاشعور «وهو فرض اسلم انا نفسي طواعية باننا لا نستطيع البرهنة على صحته الشاملة وان لم نستطع نقضه كذلك» (35) ؟

3 ــ اعتمد فرويد في طرحه الاسطورة حقيقة نفسية من خلالها استخرج الخطوط العريضة لمنظوره السيكولوجي ، وفي توجهه هذا

ــ 33 : تفسير الاحلام ص 292 .
ــ 34 : تفسير الاحلام ص 506 .
ــ 35 : تفسير الاحلام ص 583 .

الى الاستمارات الميثولوجية دليل على بعده عن الخطاب العلمي (36).

ويحق لنا أن نتساءل : كيف يحدث أن تكون الاسطورة تعكس حقيقة نفسية في النوع الانساني كلـــه ؟

وباي برهنـــة نستطيـــع التسليم بذلك ؟

وماهي الادوات المنهجية المستعملة في تلك البرهنة ؟

ثم بأي حق وبأية مشروعية بذى فرويد تلك الاحكام الخطيرة انطلاقا من الاساطيـــر ؟

وأخيرا، ان كانت الاساطير ـ حقا ـ تعكس واقعا نفسيا في النوع الانساني كله ، فلماذا اختلفت وتختلف اساطير هذا الشعب عن ذاك ؟

وما هي الحدود المشتركة بين الامم في اختلاف الاساطير طالما أنها تعبر عن واقع نفسي واحد ؟

4 ـ اتكأ فرويد على النظرية العصابية من خلال تفسير أحلام العصابيين ، في حين يعترف قائلا : «وأما أحلام العصابيين فلا يسعنا دائما ـ أو على الاقل لا يسعنا كثيرا ـ أن نمضي في تحليلها الى غاية معناها الخبيء ، فهناك قوة خاصة ـ قوة كان لها نصيبها في تكوين العصاب أصلا وتتحرك الى العمل حين نتعرض لحله ـ تحول دون تفسير الحلم حتى لغـزه الاخيـــر» (37)

ـ 36 : راجع مذهب التحليل النفسي ص 43 ـ 44 .

ـ 37 : تفسير الاحلام ، ص 288 .

5 ـ ورغم تصريحه بذلك العجز فقد سار تحت ضغط فكـرة بلية مبنيـة على سيكولوجية الاعصبة مما جعله يخرج عن المنهج الذي حدده لبحثه من قبل ، فقد شعر بذلك فقال «فقد جئت الـى موضوع الحلم مفادا بأعمالي السابقة في ميدان سيكولوجية الاعصبة التي أردت الا أتخذ منها أساسا ارجع اليه في الكتاب الحاضر ، ومع هذا اراني مسافا الى ذلك في نزل خطوة أخطوها بدل المضي في الاتجاه المخالف ، متخذا من الحلم وسيلة الى الاقتراب مـن سيكولوجية الاعصبة كما كانت مشيئتي ؟ واني لاعلم كل الاضطراب الذي يجره ذلك على القارىء ، ولكني لا أعرف وسيلة الى تجنبه» (38).

6 ـ ان سبب الامراض العصابية يكمن في النزوع الجنسي نحو الام والشعور بالبغضاء نحو الاب كما يقرر فرويد ، ولكـن ما المانع من أن يكون الناس كلهم عصابيين اذا كان ذلك النـزوع امرا طبعيـا في الانسـان ؟

7 ـ اذا كان الفتى ـ في نظر فرويد ـ يعاني من عقدة اوديب، فهل خلا التكوين النفسي للايتام من تلك العقد باعتبار ان الفتـى لم يصادف في حياته أبا يصارعه ولا اما ينزع نحوها ـ وكذلـك الشأن بالنسبـة للفتـاة ـ ؟.

8 ـ ان أوديب وهو يفقأ عينيه ويهجر وطنه تحت فعاليـة

---

38 ـ : تفسير الاحلام ص 574 ـ 575 .

هو تحقيق تلك الرغبة المجنونة في أن يكون فرويد عظيما ؟.

هذا من جهة ، أما من جهة أخرى فقد ألمح في اطار تفسيره لبعض احلامه الى أنه كان – هو نفسه – يعاني مما كان يعاني منه أوديب اتجاه أمه في الاسطورة وأراني مضطرا لاسوق هذا الحلم وتفسيره على طولـه :

«... أذكر حلما من سنتي السابعة أو الثامنة ، حللته بعد ذلك بما يقرب من الثلاثين عاما . كان حلما شديد الجلاء ، رايت فيه أمي المحبوبة وقد ارتسم على ملامحها تعبير نائم وادع دعة غريبة ، يحملها شخصان (أو ثلاثة) لهم مناقير الطير ، ويرقدونها على الفراش . واستيقظت باكيا صارخا حتى قطعت على والدي نومهما.

ان الشخوص الملفعة في هيئة غريبة ، ذوات الطول الخارق ومناقير الطير قد اشتقوا من توراة فيليبسون . ولا أخال الا انهم كانوا آلهة برؤوس العقاب نقلت صورتهم من حفر جنائزي منحدر من مصر القديمة . وقد ذكرني التحليل فوق ذلك بغلام سلسي التنشئة ، ابن بواب اعتاد اللعب معنا على حشيش أمام المنزل ونحن صغار. ويغلب على ظني أنه كان يدعى فيليب ، ويبدو لي ان هذا الولد كان أول من سمعت على لسانه اللفظ العامي لفعل الجماع . – وهو اللفظ الذي يستخدم المثقفون دائما في محله كلمة لاتينية ، ولكن دل عليه في الحلم اختيار رؤوس العقاب دلالة كافية الوضوح – ولابد أني خمنت المفهوم الجنسي للكلمة من سيما معلمي المحنك هذا .

فأما التعبير الذي ارتسم على ملامح أمي في الحلم ، فينقل مرأى جدي اذ شهدته قبل موته بأيام قلائل وهو يشخر في غيبوبته .

وعلى ذلك وجب أن تذهب المراجعة الثانوية في تفسيرها الذي تقوم به في الحلم الى أن الام قد ماتت ، ويلائم ذلك الحفر الجنائزي كذلك . واستيقظت في هيلة لم تنقطع حتى أيقظت والدي ،،، واذكر اني هدأت فجأة حين رأيت وجه أمي كأنما كانت بي حاجة الى ما يطمئنني انها لم تمت ، سوى أن هذا التفسير الثانوي انما أتى تحت تأثير هيلة قد أخذت من قبل في التمخض . فأنا لم استشعر الهيلة لان أمي قد ماتت ، بل فسرت الحلم هذا التفسير في مراجعتي الثانوية اياه ، لانني كنت فعلا تحت تأثير الهيلة . فان حسبنا للكبت حسابه أمكن تأثر الهيلة الى رغبة مبهمة ، جنسية في غير خفاء ، وجدت في المحتوى البصري للحلم ما يعرب عنها اعرابا موفقا» (46) .

أفلا يمكن أن تكون (عقدة أوديب) من جملة تلك الدوافع في نفسية فرويد ؟

ثم أفلا يكون قد انطلق من نفسه ـ وهو يعاني ما يعاني ـ ليعمم الحكم على باقي الانام ؟

ـ 46 : تفسير الاحلام ص 570 ـ 571 .

ان هذا السرد للحلم وتفسيره يعطي للقارىء فرصة الاطلاع على الكيفية التي يؤول بها فرويد الاحلام .

هو تحقيق تلك الرغبة المجنونة في أن يكون فرويد عظيما ؟.

هذا من جهة ، أما من جهة أخرى فقد ألمح في اطار تفسيره لبعض احلامه الى أنه كان ـ هو نفسه ـ يعاني مما كان يعاني منه أوديب اتجاه أمه في الاسطورة وأراني مضطرا لاسوق هذا الحلم وتفسيره على طوله :

«... أذكر حلما من سنتي السابعة أو الثامنة ، حللته بعد ذلك بما يقرب من الثلاثين عاما . كان حلما شديد الجلاء ، رأيت فيه أمي المحبوبة وقد ارتسم على ملامحها تعبير نائم وادع دعة غريبة ، يحملها شخصان (أو ثلاثة) لهم مناقير الطير ، ويرقدونها على الفراش . واستيقظت باكيا صارخا حتى قطعت على والدي نومهما.

ان الشخوص الملفعة في هيئة غريبة ، ذوات الطول الخارق ومناقير الطير قد اشتقوا من توراة فيليبسون . ولا أخال الا أنهم كانوا الهة برؤوس العقاب نقلت صورتهم من حفر جنائزي منحدر من مصر القديمة . وقد ذكرني التحليل فوق ذلك بغلام سيء التنشئة ، ابن بواب اعتاد اللعب معنا على حشيش أمام المنزل ونحن صغار. ويغلب على ظني أنه كان يدعى فيليب ، ويبدو لي أن هذا الولد كان أول من سمعت على لسانه اللفظ العامي لفعل الجماع . ـ وهو اللفظ الذي يستخدم المثقفون دائما في محله كلمة لاتينية ، ولكن دل عليه في الحلم اختيار رؤوس العقاب دلالة كافية الوضوح ـ ولابد أني خمنت المفهوم الجنسي للكلمة من سيما معلمي المحنك هذا .

وأود أن أتجاوز هذه الدراسة الداخلية لاقتبس بعض النظرات من لوس ايرا جراي ـ وهي تنتمي الى المدرسة الفرويدية ـ كنموذج اول ، حيث لاحظت «ان فرويد عندما يتكلم عن المرأة يضيع عقله ويشتد شريط تحليله ومنطقيته ، فهو يشعر دائما أنه السيـد ، وهو عندما يتكلم عن المرأة يتجه الى الرجال على أساس ان المرأة لا يجب عليها معرفة شيء من أمورها .. وأن مشكلة الانوثة تهـم الرجال ... وأن المرأة عند فرويد لغز عجز الرجال عن اكتشافه . وبذلك بقيت المرأة كالارض الموحشة في علم النفس ، وأن فرويـد بكل ما يحاول اعلانه من استقامة البحث لا يرى في المرأة كائنا انسانيا ... وأنه ربما كان فرويد مريضا ويعانـي عقـدة ازاء المـرأة» (47) .

أما النموذج الثاني فهو محمد قطب كأحد المعجبين بفرويد والمهتمين بأبحاثه ، يقول بعدما توصل الى عنكبوتية النسـج الفرويدي : «ولاريب في أن الصبي سيجموند فرويد قد وقع في نفسـه كثير من ذلك (أي ما تعرض له اليهود من احتقار واهانة وتشريد من طرف الكنيسة على الخصوص ، ومن طرف أمريكا في يوم من الايام) ، وترسبت في لا شعوره أحاسيس معينة تجاه هذا الاضطهاد

ـ 47 : على الفكر الاسلامي أن يتحرر من سارتر ، فرويد ودوركايم ص 9 ، تأليف الدكتور أنور الجندي ، سلسلة في نور الضوء الجزء الثامن دار الاعتصام .

والتحقير الذي يلقاه اليهود وهو منهم ، وازاء التهم التي تكال لهم بالشمال واليمين . فكيف «انتقم» لاشعوره من كل ذلك في صورة بريئة المظهر .. لا اعتراض لاحد عليها من أولئك «الجناة المعتدين» من المسيحيين ؟

انه ينتقم لنفسه ولليهود جميعا بأن يقول : أيها الناس الذين تتهموننا بأننا نعيش على غرائزنا لا نعرف الا صوالحنا الخاصة ، ولا نقيم وزنا لقيمة عليا او ميزان خلقي ، انظروا الى أنفسكم ! انظروا الى دخائل شعوركم ... انكم كلكم كاليهود ! كلكم ماديون تعيشون على الغرائز ! كلكم لا ضمير لكم ، ولا اخلاق ، ولا مثل عليا ، ولا قيم معنوية ! كلكم تنطبق عليكم الصورة البشعة الشائهة التي تلصقونها باليهود ؟ فلماذا تخصونهم بها ، وهي صورة الانسانية عامة في القديم والحديث ؟

وهكذا يرفع فرويد ـ في اللاشعور ـ لعنة الاجيال التي انصبت على اليهود وحدهم، ويذتقم لهم بأن يصب اللعنة على الجميع !» (48)

ومما تجدر اليه الاشارة أنه اشير الى فرويد في كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» كما يلي : «يجب أن نعمل لانتهار الاخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا . ان فرويد منا ، وسيظل يعرض

ـ 48 : الانسان بين المادية والاسلام ص 28 ـ 29 ، تأليف محمد قطب الطبعة الخامسة دار الشروق 1978 .

العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ، ويصبح همه الاكبر ارواء غرائزه الجنسية ، وعندئذ تنهار أخلاقه» (49) .

ـ 49 : الاسلام والجنس ، ص 19 ، تاليف فتحي يكن الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة 1975 .

وقع النظرية الفرويدية على المرأة الغربية

ان العرض المتقدم من شانه ان يضعنا أمام الدوافع الحقيقية الكامنة وراء الطرح الفرويدي ويدفعنا الى نتقصي ابعاده في الواقع الاجتماعي الذي يعكس ـ حقيقة ـ المدى البعيد للنظرية الفرويدية.

يمكن حصر تلك الابعاد فيما يلي :

1 ـ رفض المرأة الانتماء الى الجنس النسـوي .

2 ـ شعور المرأة بالنقص ، وفقدانها لكيان نفسي متميز .

3 ـ شعور المرأة بانها أضعف من الرجل واحط قدرا منـه باعتبار طبيعتها .

4 ـ اعتقاد المرأة بأن مصدر القوة والكمال هو الرجل ممـا جعلها على السير في ركبـه .

5 ـ دخولها في صراع مع الرجل باعتباره المسخر الاول لها ، والمستفيد منها والهاضم لحقوقهـا .

ويلخص P. Daco نظرة المرأة الغربية على هذا النحـو : «نحن (معشر النساء) ضعيفات ، لا نملك استقلالنا . انه لمن المستحيل أن نساوي الرجل ، اننا لا نقدر على شيء مادامت هذه طبيعتنا ، الرجال وحدهم المؤهلون لامتلاك القوة والعظمة ، نحـن كائنات بتراء ، مخصيات ، رجال ناقصون ...» (50) .

Comprendre les femmes et leur psychologie profonde . p. 53 Pierre Daco marabout. : 50 -

ومن هذا المنطلق تكونت في المجتمع الاوروبي حركة تحرير المراة (M. L. F) «التي اتخذت طابعا تحاكي به موقف الرجل كما لو كان هدف الانوثة في مطابقته السلبية أن تتحرر من هذه السلبية لكي تحاكي الرجل في فعاليته» (51) .

على أن هذا لا ينفي وجود حركات عديدة لتحرير النساء اتجهت وجهة مضادة للرجل ، بل اعتبرته العدو الاول في حياتها .

وعلى هذه الاسس سارت المراة الغربية في سلوكها الاجتماعي وتصورها الحياتي ، فكانت بذلك أشقى الكائنات على الارض : حيث فقدت توازنها الداخلي ، وحيثترسخ مركب النقص في بنائهـا النفسي ، وحيث انجرفت في دنيا الرجال ، وحيث سقطت ضحية الخداع الفكري والاجتماعي والحضاري .

ان هذه النماذج الحية التي اسوقها تدل بما فيه الكفايـة على التمزق النفسي الذي تعانيه المراة الغربية ، خاصة اذا علمنا ان الجانب النفسي أساس جوهري في الهوية الانسانية : اذ من فقد التوازن النفسي فقد كل الحياة وتبقى ـ بعد ذلك ـ كل وسائـل الحياة عاجزة عن تعويض الشعور بالحياة .

النموذج الاول : «انني اعيش على هامش الحياة ، لانني امراة ، في حين وددت أن لو أكون رجـلا» (52) .

ـ 51 : الدكتور عدنان حب الله في مقال الانوثة بين الرجـل والمرأة ، ص 86 ، مجلة الفكر العربي المعاصر .

- 52 : Comprendre les femmes - p. 72

النموذج الثاني : « لكم أشعر بأعظم الصعوبات في أن أكـون امراة . ذلك لانني اجهل ما معنى «كوني امرأة» . لم يسبق لـي ان علمت بذلك ، بل على العكس لا اسمع الا أن المراة «ماهي الا...»، وارفض ان اعيش تحت هذه المقاييس السلبية» (53) .

النموذج الثالث : «احس انني محاصرة ، سجينة ذاتي ... اكره ان اكون امراة ، لو لم تكن الدورات الشهرية لقبلـت أن اكونهـا» . (54)

النموذج الرابع : «ارفض أن أكون ضحية كأمي ، لذلك انحسر على وضعي كامرأة ، وسانحول الى رجل» (55) .

ان لسان المراةالغربية يقول في غير همس :

ويلاه من وجـودي !

ويـلاه من جنسـي !

ويـلاه من حيـاتـي !

ما ارعب هذا الضنك وهذا الخوف وهذا اليأس وهذا القلق !

ما أشقاني بنفسـي !

وما أشقى النـاس بـي !

ما أقسى هذي الحيـاة !

---

53 - Comprendre les femmes . p. 72

54 - Les triomphes de la psychanalyse du traitement psychologique à l'équilibre de la personnalité .p. 329. Pierre Daco . marabout.

55 - Comprendre les femmes .p. 40.

ان الحضارة الغربية ـ وقد وصلت ذروتها في ايجاد وسائل الراحة والمتعة لبني الانسان ـ لم تستطع ارضاء الجانب النفسي في الانسان عموما والمرأة بوجه خاص : اذ اعتبرتها مجرد متعة يتلهى بها الرجل متى شاء وكيف شاء . فما عادت تملك طمأنينة البيت واستقراره ، ولا الزوج ومطالبها المعنوية منه ، بل ولا الشعور بالحياة ، فما معنى أن تملك ـ بعد ذلك ـ كل وسائل الحياة !

الى هذا المدى استطاعت النظرية الفرويدية ـ وهي وجه من وجوه الحضارة الغربية ـ أن تنفذ الى المجتمع الغربي ، بل الى المجتمع الانساني ككل باعتبار أن تصدير الفكر الغربي عملية واسعة الانتشار ومصاحبة في الوقت ذاته ـ كما يبدو الان واضحا ـ لعملية التصدير الاعلامي والتكنولوجي . ومن ثم يمكن الحديث عن أزمة المرأة العربية المعاصرة .

المرأة العربية المعاصرة ونتائج النظرية الفرويدية

ان هذا الحديث يستمد مشروعيته من الواقع الذي تعيش عليه المرأة العربية المعاصرة . هذا الحديث يحاول أن يستشف من خلال المظاهر المتأزمة في سلوكيات المرأة العربية المعاصرة وفي تصورها وفي سيكولوجيتها وفي فكرها ـ الاليات التي تحرك البنية الخفية وتتحكم في توجيهها نحو الازمة . انه ليس من باب التقليد أن يطلق مصطلح الازمة على واقع المرأة العربية ، وليس من باب الاسقاط أن يبحث عن الاطار النظري الذي تتحرك فيه هذه الازمة .

فعلى كل المستويات تعيش المرأة العربية المعاصرة على نتائج النظرية الفرويدية التي سبق طرحها ، وهذه نماذج توضح هذا المذهب :

ـ ما أحقر الرجال ! انهم ذئاب في ثياب البشر .

ـ أكرهه الرجال جميعا .

ـ الرجال أنانيون ومتعجرفون .

ـ ما أراه في الرجال هو أن الغرور يقتلهم ، وانهم ليسوا اهلا للثقة والتقدير والاحترام لانهم يحتقرون المرأة ويصفونها بالضعف .

ـ الرجال متهورون ، سيسقطون في قبضتنا . (56)

ـ 56 : لعل هذا التصريح سيند لما قالته Simone de Beauvoir من أن المرأة تريد أن تجعل الرجل ـ الذي تحقد عليه

ـ الرجال : عالم الخداع والكذب والنفاق ، ما أشد حقدي عليهم !

ـ الرجال ، أكرههم جميعا ، فمنذ أن بلغت الحادية عشرة وأنا حاقدة عليهم ولكني لا عرف لماذا (57) .

هذه تصريحات من المرأة العربية المعاصرة ـ حافظت على حرفيتها ـ وهي تصريحات صارخة تنبىء بالغليان النفسي الذي يحدثه المجتمع / الرجل في ذاتها . واستنطاق بسيط لتلك التصريحات يدل على أن حقدها وكراهيتها للرجل انما تنبع من أخلاقياته ، من استغلاله ، من تصوره المريض ... انها هكذا تكبت هذا الحقد في داخلها تماما كما يعبر عن ذلك هذا النموذج الغربي :

اننا معشر النساء لا نتحدث ابدا عن الامنا الداخلية : عن خوفنا ، عن قلقنا ، لان الرجال لا يسمعون منا . ماذا نقول لهم ؟ اننا نلجأ الى بعث الثقة فيهم في حين لا نملك تلك الثقة

في قبضتها للانتقام منه . وتقول ان المرأة انهزمت أمام الرجل والحياة ، ولكنها تحول انهزامها الى انتصار ، لذلك فهي ـ كما في طفولتها ـ تستسلم لهيجان الدموع ، وتلجأ للتمثيل.
Le deuxième sexe (2). Simone de beauvoir
p. 322 . Editions Gallimard. 1949.

18 ـ 57 : حصلت على هذه الاستمارات من خلال بحث ميداني أجريته على عينة من الطالبات غير المتزوجات في الموسم الدراسي 81 ـ 82 ، واللائي لا يتجاوزن عشرين سنة من عمرهن .

نفسهـا (58) .

وبقدر ما تكره المرأة العربية المعاصرة الرجل بقدر ما تحاول ان تركن اليه ، وأن تجتذبه اليها ، وأن تحتمي به «فهي بحاجـة دائما الى طرح سؤال لا تستطيع الاجابة عليه ـ : ماهي رغبة الرجل ؟ وماذا يبغي منها ؟ وكيف يمكن اجتذابه وافتتانه كـي تنتزع اعترافا صريحا بانوثتها ؟ ـ

أسئلة لا تستطيع الاجابة عليها دون أن تتماهى بالمـرأة الغربية ، فمن مكانها وتشبها بها تواجه الرجل كما لو كانت تواجهه بقناع يكشفها ويخفيها في ان واحد ، تتلذذ باثارة رغبته وباستعراض فتنتها ، تحول جسدها من جسد مقسم فان الى جسد تسكنه الرغبة...

فاستعانة المرأة الشرقية (العربية) بالمثال الانثوي للمرأة الغربية تأتي نتيجة البلبلة التي خلقها في نفسها تطور هذه الاخيرة وانعكاسها على نفسية الرجل من حيث ان الفراغ المتروك لابد مـن ملئه حتى تثبت وجودها (59) . انه لا يقصد من وراء هذا الطرح تحطيـم المرأة العربية ولا التنقيص من قيمتها ، ولا الادعاء بأن تلك المظاهر من طبيعتها ، ولكن لماذا لا نقبل نفوسنا عارية ؟

انه تناقض حاد قبلت المرأة العربية المعاصرة أن تعيش به ففي الوقت الذي تصرخ فيه بين الفينة والاخرى برفع ظلم الرجال عليها ، وفي الوقت الذي تكن لهم الحقد والكره ، في الوقت الذي

ـ 58 : راجـع Comprendre les femmes ص 254 .
ـ 59 : الدكتور عدنان حب الله في مقال «الانوثة بين الرجـل والمرأة» ص 86 . مجلة الفكر العربي المعاصر .

تجاري الرجل في لباسه وفي حلق شعره وفي كل حركاته وسكناته انها أنثى وتريد الحصول على حقوق الانثى ولكنها في ذات اللحظة ترفض أن تكون أنثى وتأبى الا ان تسير في الركب الرجولي على كل الاصعدة . انها بذلك تعترف بضعفها ونقصها وعجزها واستسلامها وعدم استقلالها ، وفعلها ذاك يؤكد أنها تنقص من ذاتها ولا ترى الكمال الا في الرجل .

«لقد لوحظ أن أكثر النساء تزينا وبهرجة واظهارا لجمالهن الجسدي الانثوي هن أكثر النساء احساسا بالنقص ، وان محاولتهن الدائبة للمبالغة في التجمل والتزين ليست الا مداراة أو تعويضا عن ذلك الاحساس الدفين بالنقص ، أو بأنهن نساء غير كاملات» (60) . ومثل هذه الشهادة حينما تدلي بها الدكتورة نوال السعداوي فانها تكون ذات قيمة خاصة .

والمجتمع العربي عامة يساهم في تكريس الصراع الداخلي في نفسية المرأة بأفكاره المتداولة وحولها : فهي ـ في اعتباره مخلوق ضعيف ، لم تخلق الا متعة للرجل تخفيفا لقساوة الحياة عليه ، وهي شريرة بفطرتها ، وهي سبب الغواية ورمز الفساد

---

30 ـ 60 : الرجل والجنس ، ص 74 ، تأليف الدكتورة نوال السعداوي . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت الطبعة الثالثة 1980 .

والشقاء ، وهي شيطان الانـس (61) .

ومفهوم الانوثة في المجتمع العربي أصبح مطابقا لكل ماهـو سلبي : ضعف ، استسلام ، نقص ، خوف ، عجز ... والتربيـة التي تمارسها الاسر ترسخ هذا المفهوم المشوه للانوثة ، فتربـي الطفل على القوة والشجاعة والطلاقة وغيرها ، وتربي الفتاة علـى الانكماش والخوف ... ومن ثم – ومنذ الصغر – ترى في أخيها الطفـل رمـز الكمـال .

ويساهم المجتمع العربي في تشييء المرأة Chosification de la femme

باباحة عرضها عارية على صور المجلات ، وفي الافلام والرقصات والسهرات ، واستخدامها عنصرا هاما في ترويج السلع على اختلاف أنواعها عبر الاشهار والاعلانات والملصقات . انها في اعتباره مجرد شيء وكفى ، بل انها تعتبر نفسها مجرد شيء وكفى «ان هؤلاء النساء الغريرات اللائي يلهثن وراء ملاحقة المودات واخر صيحة في الازياء والماكياج لا يدركن أنهم لم يعدن نساء ، وانمـا أصبحن مجرد أشياء ، أو اجزاء ، وان الواحدة منهن لم تعـد انسانا كاملا» (62) .

---

61 – راجع كتاب «قراءات في علم النفس الاجتماعي في البلاد العربية» د، لويس كامل مليكة ، ص 260 ، الدار القومية للطباعة والنشـر ، 1965 .

62 : الرجل والجنس ص 171 .

أليست هذه هي وضعيـة المرأة الغربيـة ؟

أليست هذه هي النتائج العملية للنظرية الفرويدية التي صدرت الينـا بشتـى الوسائـل ؟

انه لا يقصد بهذا الكلام ان المرأة العربية المعاصرة تستوعب النظرية الفرويدية ، وتتبنى العمل بها على مستوى الوعي . كلا ، انها فقط تعيش على نتائجها من خلال انتمائها الحضاري الـى الغرب . ذلك الانتماء الحضاري اللامشروع يرتبط في علاقة جدلية لولبيـة بالبعـد السيكولـوجـي والبنية الفكريـة والممـارسـة السلوكية في الحياة الاجتماعية ، حيث ان الانسان عبارة عن شبكة علائقية لا يمكن فكها : فمجموعة الافكار التي يحملها عن شـيء ما تولد لديه تصورا خاصا لذلك الشيء وتحدد تعامله النفسي والاجتماعي معـه .

يمكن تلمس هذا الامر من خلال ثلاثية : اللغة ـ الفكر السلوك : فاللغة «تنظم الى حد كبير أفكارنا ، وتساهم في تكييف جوانب تصورنا للعالم» (63) . وهي «من حيث انها تمثل رمزي للواقع المحسوس تتضمن تصورا خاصا للعالم ، ينظم ويكيف الفكر» (64) كما تعبر عن ذلك نظرية Wholf و Sapir

---

ـ 63 : الالسنية (علم اللغة الحديث) : مبادؤها وأعلامها ، ص 221 الدكتور ميشال زكريا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانيـة 1983 .
ـ 64 : نفس المرجع ص 222 .

ولما كانت المرأة العربية المعاصرة ـ في غالب الاحايين ـ لا تتكلم اللغة العربية ، وانما تتكلم لغة المستعمر فرنسية كانت أم انجليزية أم غيرها ، فهي بذلك الممارسة تفكر من منظار غربي وترى العالم والحياة برؤية غربية وتحولهما الى رموز لغوية غربية بكل ما تحمله عملية التحويل تلك من أبعاد ينعكس مداها على السلوك بعدما ينعكس على مسار التفكير .

ولما كانت اللغة تنظم الفكر وتؤطره فان تلك اللغة المتكلمة من طرف المرأة العربية المعاصرة تساهم الى حد بعيد في تأطير فكرها وتكييفه وتوجيهه . ومن ثم فلا غرابة من أن تحمل المرأة العربية المعاصرة تصورا غربيا يحدث شرخا في بنيتها النفسية والفكرية : فهي تعيش في واقع عربي اسلامي يؤثر ـ الى حد ما على نمط تفكيرها بتقاليده وأعرافه ، وهي في ذات الوقت تعيش تحت ضغط الفكر الغربي وتصوره للعالم والحياة .

انّ الحياة في التصور العربي الاسلامي فرصة ذهبية منحت للانسان ليثبت جدارته وليبلغ بمسؤولياته كاملة غير منقوصة بينما التصور الغربي يوارح بين الاصطدام كلية بالتصور العربي الاسلامي وبين الالتقاء معه في بعض جوانبه .

وبصورة اجمالية فعبثية الحياة وعبثية الانسان طابع غالب في التصور الغربي ، وغائية الحياة ومسؤولية الانسان جوهر التصور العربي الاسلامي . فكيف تستطيع المرأة العربية المعاصرة المزج بين هذين التصورين ؟

ان ذلك الشرخ في البنية الفكرية يجزىء الذات الانسانيـــة ويجعلها في مهب الريح ، حين ينعكس ذلك الانفصام على البنيـــة النفسيـــة باعتبار العلاقة الجدلية بينهما . فالمرأة العربية المعاصرة لم يسبق لها أن أدركت على مستوى الشعور ذلك الشرخ في ذاتها ، ولم يسبق لها أن ادركت اشكالية ذلك المزج غير المشروع .

ولما كانت اللغة تفعل فعلها في الفكر فلا مناص من أن يكون لها تأثيرها البين على السلوك . فـ « اللغة والسلوك مرتبطـــان ارتباطا عضويا : فاللغة ليست تعبيرا عن الافكار فحسب ، انهـا توق وانشداد نحو الاخر ، انها همزة الوصل بين الفرد والمجتمع ، بين الانسان والعالـم» (65) .

وبمجرد القاء نظرة على سلوكيات المرأة العربية المعاصـرة ينكشـف لنا المـدى البعيد لتلـك المقولـة . فلبـاس المـرأة العربية المعاصرة ـ وهو مظهر ثقافي (66) ـ يساعد على ابـراز طبيعة سيكولوجيتها ، فهي مع كل نوع من اللباس بغض النظـر عن كونه يليق بالذات الانثوية ، أو يساير اخلاقيات الشخصيـة

ـ 65 : الدكتور بسام بركة في مقال « اللغة بين الدراسات النفسية والدراسات اللسانية» ص 49 ، مجلة الفكر العربي المعاصـر .

ـ 66 : ان اعتبار اللباس كمظهر ثقافي يمكن توضيحه مثلا من خلال الحركة الهبية ، وكيف أن أعضاءها اتخذوا أزياء مناقضة للعرف ، معبرة عن فلسفتهم في الوجود .
كما يتجلى كذلك في الجلباب وما يحمله من دلالات ثقافية ودينية

التسوية ويحافظ على تميزها وسلامة فطرتها . وهذا المظهر الخارجي يعكس تبعيتها الحضارية والنفسية والفكرية والاخلاقية ، ويكـرس بذلك وضعيتهـا المتأزمـة .

الى هذا المدى تستطيع اللغة التأثير في فكر الانسان وسلوكه ، ومن ثم في نفسيته (67) . والى هذا المدى استطاعت لغة المستعمر (68) استيلاب الشخصية التسوية على وجه الخصوص .

ـ 67 : ان محاربة كمال أتاتورك للغة العربية (والليـاس العربي) ينبع من القيمة التي تتخذها في تحديد شخصيـة الانسان وعقليتـه .

ـ 68 : ان هذا لا يعني بحال صرف النظر عن تعلم اللغـات الاجنبية باعتبارها لغة المستعمر ، بل بدونها لا يمكن أن تكتمل ثقافة الانسان ، انما بعد اتقان اللغة العربيـة بوصفها من مكونات الشخصية العربية الاسلامية .

حول طرح نوال السعداوي

امام هذا الوضع المتردي ، ظهرت أطروحات استغلت أزمة المرأة العربية المعاصرة لتمرير أفكارها المحشوة بالدوافع الايديولوجية . وتحاول هذه الاطروحات ـ التي تبنتها بعض الحركات النسوية ـ أن تختزل أزمة المرأة في القمع الجنسي وعدم المساواة مع الرجل ، وعدم اتاحة فرص العمل والهيمنة الرأسمالية . ولا ترى حلا لهذه الازمة الا في تحقيق مجتمع اشتراكي يعوض للمرأة ما ضاع منها ! كما لا ترى سندا لها الا في تاريخ المرأة القديم ، حيث صاغته على هذا المنوال : «فلدى الشعوب البدائية حيث كانت تسود علاقات الانتاج المشاعية ، لم يكن هناك أي تمييز بين المرأة والرجل ... ومع بروز الملكية الفردية التي كان يستبد بها الرجل الذي أصبح مالك وسائل الانتاج والقطيع بات من الضروري ارساء مؤسسة عائلية تكرسها وتعيد انتاجها ... فحتى لا تضيع الثروة من أيدي المالكين ظهر نظام الوراثة الذي يضمن انتقالها من السلف الى الخلف . وبديهي أن مشاعية العلاقات بين الجنسين كانت تحول دون ذلك لانها لا تسمح بمعرفة الاباء الفعليين للرجل فجاء الزواج الاحادي ليمكن من ذلك» (69) .

ـ 69 : ورد ذلك في مقال لطيفة جبايدي «طروحات أولية حول المسالة النسائية» ص 6 ، جريدة 8 مارس العدد الاول 1983.

ومن ثم فالحل ـ في زعم هذا المطرح ـ يتبدى واضحا من خلال:

ـ القضاء على الزواج الاحادي ·

ـ مشاعية العلاقات بين الجنسيـن ·

ـ القضاء على نظام الوراثة ، أو تكييفه بشكل يضمن للمرأة الحـظ الاوفـى ·

ـ القضاء على المؤسسة العائليـة ·

ـ تمكين المراة من وسائل الانتاج وابعاد الرجل عنها أو اشراكـه فيها بنصيب ·

ـ وأخيرا ، تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة !

وحينما يسأل عن مصادر هذا التاريخ لا تجد الا الظن والتخمين وقلب الحقائق أمام غياب الشواهد والادلة . ذلك ما تؤكده سيمون دوبوفوار Simone de beauvoir حينما تقول اننا لا نستطيع معرفة ما وقع بالفعل للمراة المادية في مراحل مختلفـة من التاريخ الا بالحدس والتخميـن (70) ·

والدكتورة نوال السعداوي نفسها ـ والتي تتخذ من ذلـك التفسير اطارا نظريا تنطلق منه لترجع اليه ـ تصرح أن «نشـوء علم التاريخ بالنسبة لنشوء أول الحياة الانسانية يعتبر شيئا حديثا» (71) ورغم ذلك فهي تدعو الى «أن استقلال المراة الاقتصادي

ـ 70 : راجع مقال الدكتور شكري نجار «ظاهرة انتفاص المرأة» ص 73 . مجلة الفكر العربي ·

ـ 71 : المرأة والجنس (2) الانثى هي الاصل ص 20 ·

بسبب العمل خارج البيت هو العامل الاساسي في مساواة المرأة بالرجل في الحقوق والواجبات ومنها حق الحرية الجنسية» (72) وتتخيل أن وضعية المرأة الاقتصادية هي التي تحدد قيمتهـــا الاجتماعية ، وأن حريتها لا تكتمل الا بازاحة المؤسسة العائليـة لرفع الكبت الجنسي على المرأة العربية ، وسيادة العلاقات المشاعية.

لكنها تصادم نفسها بقولها : «وقد أثبتت الاحصاءات والبحوث التي أجريت في بلاد أوروبا الشرقية والغربية أن النساء العاملات المتزوجات أقل فئات المجتمع على الاطلاق حصولا على وقت الراحة. فالمرأة تعمل خارج البيت عدد الساعات نفسها التي يشتغلها الرجل ثم تعود الى البيت لتخدم زوجها وأطفالها» (73).

وتختتم المطاف بدعوة المرأة الى ادراك «أن نجاح حركتها يرتكز على مقدار نجاحها في المساهمة في تغيير المجتمع وتحويله الـى مجتمع اشتراكي حقيقي يحقق العدالة والمساواة لجميع البشر بصرف النظر عن لونهم أو جنسهم أو طبقاتهم الاجتماعية » (74) .

ان هذه الحلول الموهومة لا تزيد المرأة العربية المعاصرة الا استغلالا لها ـ كما تقرر ذلك الدكتورة نفسها ـ وتكرس تعذيبها جسميا وعاطفيا وتنسف بنيتها النفسية ، وترمي بها في هـوة البهيميـة .

ـ 72 : المرأة والجنس ص 91 .

ـ 73 : المرأة والجنس ص 96 .

ـ 74 : المرأة والجنـس ص 187 .

كيف تكتسب المرأة اطمئنانا نفسيا بلا استقرار عائلي ؟
وكيف يتصور انصاف المرأة باباحتها للجميع ؟
وكيف يقوم المجتمع باطفال بلا آباء ولا أمهات ؟

أما الحديث عن المساواة المزعومة فمتروك لهذه الشهادة «ما المقابل الواقعي لاسطورة المرأة السوفياتية (المساوية) في كل شيء للرجل · صحيح أن المرأة السوفياتية تلقى التشجيع على ولوج باب المهن الموقوفة تقليديا على الرجال نظير المهن العلمية لكن ان تكن غالبية الاطباء في الاتحاد السوفياتي من النساء فهذا لان الطب مهنة غير مرتفعة الاجور ، ويرغب عنها الرجال ، لكنهن بالمقابل مهندسات أكثر منهن باحثات لانهن يؤدين الاعمال الروتينية أكثر مما يؤدين أعمالا ابداعية ، ومشاركتهن في الحياة السياسية أوسع نطاقا منها في أي قطر اخر ، لكن ليس في عداد الوزراء سوى امرأة واحدة وليس في عداد المكتب السياسي للحزب أية امرأة» (75) · وورد في كتاب «النساء والتطور العالمي» أن النموذج الصيني أو السوفياتي ليس بأفضل من النموذج الغربي فيما يخص التعامل مع المرأة (76).

ـ 75 : وردت هذه الشهادة في مقال فيصل جلول «المفاهيم الافقية للمرأة في كتابات نوال السعداوي» ، ص 153، مجلة الفكر العربي ·

ـ 76 : راجع مقال ياسر فهد «نظرة في كتاب النساء والتطور العالمي» ص 352 ، مجلة الفكر العربي ·

فاية مساواة اذا يجري الحديث عنها وتتخذ قناة ناجحة من قنوات تمرير الفكر الايديولوجي ؟

ان الدكتورة نوال السعداوي ـ كنموذج طلائعي لذلك الطرح وهي تدعو الى المساواة بين الرجل والمرأة لم تتقبل ـ هي نفسها ـ فكرة المساواة تلك ، فهي تقرر مع الحقائق البيولوجية أن «طبيعة المرأة الجنسية والبيولوجية قد لا تساوي الرجل فحسب ولكنها قد تكون أقوى» (77) ، وفي مواجهة لما قاله فرويد من أن المرأة تتمنى في اللاشعور ان تصير رجلا ، تقول : « اذا واجه الرجل أي رجل ـ نفسه بصدق وشجاعة وثقة فسوف يدرك أنه شعر في يوم من الايام بحنين دفين لان يكون أنثى» (78) .

وتعود لتقرر مع العالم النفسي (جريجوري زيلبورج) أنه « اذا كان هناك بين الجنسين من هو شعر يوما بأن الجنس الادنى بيولوجيا ونفسيا فهذا هو الرجل وليس المرأة» (79) .

ونجد احدى اللواتي ينادين بتحرير المرأة ومساواتها مع الرجل تقول : «فالرجل كائن خبيث بالفطرة ، فهو أناني وسادي» (80) ولعل هذه القولة سند لما قالته الدكتورة السعداوي : «كنت في

ـ 77 : المرأة والجنس (2) الانثى هي الاصل ، ص 73 .
ـ 78 : الرجل والجنس ص 137 .
ـ 79 : المرأة والجنس (2) الانثى هي الاصل ، ص 56 .
ـ 80 : مقال لطيفة جبايدي السابق ص 7 ، جريدة 8 مارس.

حقيقة الأمر لا أحب الشبان بل أكرههم » (81) .

ان هذا الكره المعبر عنه مظهر من مظاهر الشعور بالنقص ومرحلة متقدمة نحو المرض العصبي كما يقول بذلك التحليل النفسي المعاصر . وان تلك الدعوة الى الحرية الجنسية تنفيس وتعبير عن اللاوعي كما يحدده لاكان lacan «هو أن الكائن يتمتع وهو يتكلم ، ولا يريد أن يعرف أكثر من ذلك ... لا يعرف أي شيء البتـــة» (82) . ولقد تمتعت الدكتورة ومن سار على نهجها بالكلام دون أن تعرف أكثر من الكلام على مستوى الادارة . ويكفي للمعرفة الاطلاع على مصطلحات الامراض الجنسية الجديدة الناتجة عـــن العلاقات الاباحية .

أما اذا كانت المرأة أقـوى علـى المستـوى الجنسـي والبيولوجي والنفسي من الرجل ! واذا كان الرجل يتمنى أن يكون أنثى ـ اذا واجه نفسه بشجاعة وثقة ـ ! واذا كانت المرأة ـ بما فيها السعداوي ـ تكره الرجل ، فلماذا هذه الدعوة للمساواة ؟

أليست تنقيصـا للمـرأة ؟

أليسـت المرأة هي الاعلـى ؟

افلا يحسن أن تراجع هذه الدعوة !

ـ 81 : المرأة والجنـس ص 60 .

ـ 82 : مقال جوزيت زوين السابق ص 52 مجلة الفكر العربي.

ان المراة العربية المعاصرة لابد ان توقف هذه الرحى التـــى تريد أن تسحق بداخلها كرامتها وأنوثتها ووجودها ، وتسعى الى أن تسلخ عن المرأة قداستها ، خاصة حين سارت في الركب مستلبة الفكر والهوية ، مشدوهة بالحضارة الغربية التي اصبحت سجنا لها من حيث تدعي أنها حرة ومتحضرة ، لكن كيف السبيل الى ذلك ؟

المخرج / المقترح

اذا كانت المرأة العربية المعاصرة تعيش وضعية مزرية بفعل انتمائها الحضاري الى الغرب ، وما تبع ذلك الانتماء من سيكولوجية مريضة ، وفكر منحرف وسلوك هابط باعتبار العلاقة الجدليـــة اللولبية بين تلك المحاور الاربعة ، وباعتبار تبني المرأة العربية المعاصرة ـ عمليا ، ومن حيث بنيتها الخفية ـ نظرية فرويد ، فان الامر الاول على طريق انفراج ازمتها يكمن في أن تنسحـــب انتماءها الحضاري اللامشروع الى الغرب ، وأن تعيد انتماءها الى الحضارة العربية الاسلامية كخطوة أساسية وواعية نحو تحقيق بناء سيكولوجيـــة سليمة وفكر صحيح وسلوك قويـــم .

لاجل ذلك أقترح ثلاثية تتكامل عناصرها ، وتتصهر فيما بينها بغية صياغة جديدة للشخصية النسوية :

1 ـ الوعي بـــالـــذات :

ان ابعاد نظرية فرويد كما سبق تحديدها كانت تضرب علـــى الاوتار الحساسة في نفسية المرأة لتجريدها من انسيتها وتعطيل امكاناتها العقلية والروحية والمادية ، ونزع الثقة بنفسها ، وادخالها في دائرة مغلقة تذمحي في دوامتها معالم شخصيتهـــا ، وتضيـــع اسهاماتها الحضارية المختلفة .

فحجرة البناء تكمن في اعتراف المرأة ببشريتها ـ ولكم تبدو هذه الفكرة بدهية ، ولكنها غير واردة على مستوى الوعي بهـا والعمل وفقها ـ بمعنى أن تستفيد من قدراتها الذاتية لبناء صرحها النفسي المتميز ، فلا تستسلم للواقع وتخضع لضغوطه بسهولة ولا تكتفي باشباع ضروراتها الغريزية ، بل لابد من أن تتحرر مـن قيودها الذاتية والموضوعية ، وتسمو بروحها فوق الكائنات ، وتخلو لنفسها وترمي بذاتها خارج ذاتها متجاوزة بذلك الاغلال الزمكانية في محاولة لتحسين وضعيتها وتصحيح أوضاع واقعها . والانسان ـ كما يقول الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا ـ : «.. لا يعيش فقط ، بل يعيش ويدرك أنه يعيش ، انه لا يعيش واقعـه البيولوجي الخ فحسب ، وانما هو يعيش هذا الواقع ثم يتخطاه فهو انما يزداد كينونة حيث هو غير موجود أكثر منه حيث هو موجود ، انه يتحرك من الداخل ايضا، وليس فقط بالظروف الخارجية التي تضغط على جسمه الترابي ... فقيمة الحياة ليست في الحياة ، بل فيما . يصحبها من وعي وبما تحقق لنا من كرامة وحرية وابداع . فالحياة الانسانية مشروطة دائما ببعض المعاني والقيم ، والحيـوان وحده هو الذي يقبل حياته بلا شروط ويعيش بلا معنى» (83) .

ـ 83 : من الفلسفة اليونانية الى الفلسفـة الاسلامية ص 22 تأليف الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا . الطبعة الثانيـة منشورات عويدات ومنشورات البحر المتوسط . بيروت باريس ، 1981 .

فعلى المرأة ـ أولا ـ أن تنشك فيما هي عليه الان ، وان تعيد النظر فيه اخذة ما يليق بها كأنثى ، وأن تحذر من مخططات أعدائها الرامية الى تهميشها وتدميرها .

وعلى المرأة العربية أن تحدد أبعاد وجودها : من اين ؟ الى اين ؟ وكيف ؟ تلك الابعاد هي التي تضع رحلتها في الوجود ، ومن خلالها تستطيع فرض وجودها وتحقيق ذاتها .

وعليها ـ ثالثا ـ ألا تنكر جنسيتها النسوية ، والا ترتمي في احضان الركب الرجولي ، بمعنى أن تسأل نفسها عما ينقصها لتصير امرأة لاعما ينقصها لتصير رجلا . يقول الدكتور الكسيس كاريل : « ان الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للاعضاء التناسلية ، ومن وجود الرحم والحمل ... اذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك ... انها تنشأ من تكون الانسجة ذاتها ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة يفرزها المبيض ... ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الانوثة الى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليما واحدا ، وأن يمنحا سلطات واحدة ، ومسؤوليات متشابهة .. والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيرا عن الرجل ، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها ، والامر نفسه صحيح بالنسبة لاعضائها وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي ... فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعا لطبيعتهن دون أن يحاولن تقليد الذكور فان دورهن في تقدم الحضارة

أسمى من دور الرجال ، فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة» (84) .

وعليها ـ رابعا ـ أن ترجع الثقة بنفسها باعتبارها كائنا مستقلا (85) من حيث خصائصها وطبيعتها ووظيفتها . وأن تعلم أن تهديمها كامن في اغفال قدراتها المتعددة .

فهي ـ كما يحدد ذلك الدكتور ألكسيس كاريل ـ ذات طبيعة خاصة ، وذات خصائص منفردة ، وذات وظائف محددة تختلف كثيرا أو قليلا عن الرجل . وليس أمر هذه الاختلافات في الطبيعة والخصائص والوظيفة ـ أبدا ـ نوعا من النقص فيها كما يحاول المجتمع ان يوهمها بذلك ، وكما تذهب بعض الاطروحات الاخرى ، بل ان تلك الاختلافات دليل واضح على استقلال المرأة الذاتي وقيام كيانها النفسي .

فمن خصائصها أنها تعيش الزمن ، وتساعدها طبيعتها البيولوجية على ذلك من حمل ورضاع وتربية ودورات شهرية (86) ... فهي تحس الزمن وتعيشه وتدركه ، وهذا أمر يخول

ـ 84 : الانسان ذلك المجهول ص 22 ـ تأليف الدكتور الكيس كاريل ترجمة شفيق أسعد فريد ، مكتبة المعارف بيروت الطبعة الثالثة .

ـ 85 : حينما يتحدث عن استقلالية المرأة لا يعني ذلك قيامها ضد الرجل ، كما لا يعني الحديث عن استقلالية الرجل قيامه ضد المرأة .

ـ 86 : راجع comprendre les femmes ص 322 ، 323 ، 324 .

لها اعطاء قيمة حقيقية للوقت باعتباره الحياة . والحرص على الوقت حرص على الحياة ، والحرص على الحياة اسهام فيهـا بالنافـع والبنـاء .

ان المسالة تكمن في كيفية توظيف ما لدى المرأة من مظاهـر القوة لبناء شخصيتها بشكل يمكنها من أن تجعل لها وزنا في المجتمع.

وعليها ـ خامسا ـ أن تحرص كل الحرص على تجميع شتات نفسها ، وعدم تجزيئها ، فلا تكون خيوطها النفسية تجذبها الى الوراء ، بينما طموحاتها تدفع بها الى الامام مما يحدث في كيانهـا تصدعا سلبي المفعول . والانسان كما يقول (87) Madeleine Davy حينما يعيش بتعددية « انا » لا يستجيب لوضعيته الانسانية ولا يتمكن من بناء ذاته . والمراة العربية حينما تجمع شتات نفسها وتحطم حواجزها الداخلية التي تجبرها على أن تتحرك وتفكر بشكل الي ، وحينما تنسق بين طموحاتها الداخليـــة وسلوكياتها الخارجية ، وحينما تقضي على خوفها ، على قلقها على انطوائها ، وحينما تؤطر نفسها بالوعي والثبات وتعزم عزمتها الكبرى لا مناص انئذ من أن تتغير ، وحينما تتغير هي تتغير الحياة وتقلب المفاهيم والعادات والتصورات ، وباستطاعتها وقتئذ تجاوز

---

87 ـ راجـع ص 30 من كتاب Marie Madeleine Davy
«La connaissance de soi»
Presses universitaires de France
initiation philosophique 1971

ضعفها الاني وتحقيق امنها النفسي .

2 ـ الوعي بالواقع :

يقول Gaston Bachelard : « الرأي العام يفكر سيئا ، الرأي العام لا يفكر ، انه يترجم الحاجات الى معارف ، وهو اذ يشير الى الاشياء بجدواها انما يحظر على نفسه معرفتها ، لا نستطيع أن نؤسس شيئا على الرأي العام ، فلا مناص من تقويضه أولا ، انه اول عقبة ينبغي تخطيها» (88) .

اجل، ان المجتمع يترجم حاجاته ـ تشييء المرأة ـ الى معارف تبرر تلك الحاجات . ومن ثم لا يمكن أن تعرف المرأة العربية نفسها من خلال المجتمع . فلابد اذا من تجاوز الرأي العام بل من تغييره .

لكن المرأة العربية المعاصرة حفاظا على الامن الاجتماعي تضحي بقيمة نفسها وتكامل شخصيتها وتصبح مجرد آلة كغيرها من الالات المحيطة بها ، كما يعبر عن ذلك كينث ڤوكر : «اننا نتعلم من المهد الى اللحد ان نستبدل قيمة أنفسنا بالقبول الاجتماعي ، وتكامل شخصياتنا وأرواحنا بالتكيف الاخلاقي» (89) .

ومجرد تأمل بسيط للمادة الغنائية النسوية في المجتمع العربي

ـ 88 : تكوين العقل العلمي : مساهمة في التحليل النفساني للمعرفة الموضوعية ص 13 ، تأليف غاستون باشلار ، ترجمة الدكتور أحمد خليل أحمد ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الاولى 1981 .

ـ 89 : المراة والجنس ، ص 57 .

توضح مدى الانهيار النفسي الذي تعاني منه المرأة العربية المعاصرة صباح مساء ، ويظهر الى أي حد يدفع بها المجتمع الى القبـول الاجتماعي والتكيف الاخلاقي . وبذلك لا تعيش في الواقع العربي الا بثقلها الجسمي وبأزماتها المادية والمعنوية .

ان الواقع العربي ـ بمنهجه الخاص ـ كالواقع الغربي أو أشد فتكا بالمرأة ، اذ انه يمارس عليها شتى الضغوط لمسخها وتجريدها من خصوصياتها ، ويردد قولا وعملا نفس ما يجري في الغرب برغم النتائج المفلسة المحصل عليها ، والدكتور كاريل ـ وهو من الغرب ـ يعلن أنه : « يجب أن يولي المربون اهتماما شديدا للخصائص العضوية والعقلية في الذكر والانثى . وكذلك لوظائفها الطبيعية فهناك اختلافات بين الجنسين غير قابلة للنقض ، ولذلك فلا مناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات ونحن نسعى لانشاء عالـم متمـدن » . (90) .

فاذا كان الحال كذلك ، فما هي الاجراءات المتخذة للحفاظ على مميزات الشخصية الانثوية في المجتمع العربي في شتى مجالات الحياة ؟ ثم ان الواقع العربي ـ لظروف وملابسات ـ يشهد جمودا في شتى مجالات الحياة ، وحالته هذه تغرس خنجرا في جرح معهود في نفوس الشباب ـ والفتاة من بينهم ـ اذ عرفنا في الماضي شموخا لا يقاس ، ونحن الان نفتقد ذلك الماضي ونحن اليه كرمز حضاري

ـ 90 : الانسان ذلك المجهول ص 116 ـ 117 .

لا كاطار زماني ، بينما الشباب الغربي يفتخر بالحاضر ، وقد أدار ظهره للماضي . فعلى المرأة العربية المعاصرة أن تعي هذه الحقيقة وأن ترتبط بواقعها أرتباطا عضويا مساهمة في رفع كربه ودفع ضرره

والمرأة العربية المعاصرة تعبر بعبارة عن رفض الواقع العربي الفاسد : اذ تريد التمرد عليه. والثورة على قيمه تسقط في تكريسه، وتجعل نفسها أداة صالحة يلعب بها قصد تثبيت ركائزه . انها جزء من هذا الواقع الفاسد : بنظمه بتقاليده وأعرافه ....

ومن ثم فانه لا يمكن أن تتحرر منه الا بتحرير نفسها من قيوده .

انها تعيش أزمة في واقعها ـ اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ودينيا وحضاريا ... ـ فلا تلبث أن تصير هي بنفسها أزمة اخرى. فيضيع منها أي توازن من شأنه ان يجعلها قادرة على تحديد واقعها بوضوح ودقة .

ان كثيرا من الدراسات تحاول تفسير أزمة المرأة العربية المعاصرة بأزمة الواقع ، بل بصفة ادق بالواقع الاقتصادي المتأزم، وترهن فكاك أزمتها بفكاك ازمته .

ان مثل هذه التفسيرات لا تزيد على وصف جزء من الواقع بأنه فاسد ، وتتفهم المرأة العربية المعاصرة أن فساده خارج عن ارادتها ، فيتحول الامر الى تبريرات تصب أخيرا في تكريس أزمتها بانتظار انفراج ازمة الواقع الاقتصادي بالمفتاح السحري !.

اجل ، ان الواقع الاقتصادي في أزمة ، وان الواقع الاجتماعي في ازمة ... لكن هذا كله لا يبرر استسلام المرأة امام هذه الازمات

كلها ، فتصير أزمة بذاتهـا .

ان هذا كله لا يبرر ضعفها وعجزها

ان هذا يجب أن يكون حافزا لها على تغيير الواقع تغييرا جذريا، لا أن تسلم نفسها كأداة لتكريسه ، لا ان تكون ورقة رابحة في يد من يساهمون في صنع أزمانه ، لا أن تجمد طاقاتها كلها ، وترمي بمسؤولياتها كلها على عاتق الواقع المتأزم ، وتنتظر الانتظار . وهي على ذلك أقدر اذ بيدها جيل المستقبل

3 ـ الوعي بالمسؤولية الحضارية :

ونحن كأمة عربية اسلامية لم نتكون في فراغ ، بل كنا نقـود الدنيا كلها في يوم من الايام . وكان زمام الحضارة البشرية في يد اسلافنا : حضارة ترفع الانسان الى الاعالي ، وتحفظ كينونتـه ولا تسحقه بالياتها ، وموقف المرأة العربية المعاصرة يجب أن يكون واضحا وواعيا من الحضارة العصرية ، يقول الدكتور كاريل « ان الناس لا يستطيعون أن يتبعوا الحضارة العصرية في مجراهـا الحالي ، لانهم اخذون في التدهور والانحطاط ... انهم لم يدركوا أن أجسامهم ومشاعرهم تتعرض للقوانين الطبيعية ، وهي قوانيـن اكثر غموضا وان كانت تتساوى في الصلابة مع قوانين الطبيـا ... كذلك فهم لم يدركوا انهم لا يستطيعون ان يعتدوا على هذه القوانين دون ان يلاقوا جزاءهم ... ان الانسان يعلو كل شيء ، فاذا انحط وتدهور فان جمال الحضارة بل حتى عظمة الدنيا المادية لـن

تلبث ان تزول وتتلاشى » (91) .

ان وضعية الانسان النفسية والاجتماعية والسياسية والفكرية هي الاطار المرجعي لقياس الحضارات ، ولما كان الانسان المعاصر يعاني أزمة في ذاته وفي فكره وفيما يحيط به ، ولما كانت الالية الحضارية تكرس أزمته ـ برغم أنها من صنع يده ـ فان « الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لانها لا تلائمنا ، فلقد أنشئت دون أي معرفة طبيعتنا الحقيقية ، اذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم ، وعلى الرغم من انها انشئت بمجهوداتنا الا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا» (92) .

ان الكسيس كاريل يلح على ضرورة المعرفة بالطبيعة الحقيقية للانسان ، وعلى اساس هذه المعرفة تقام هذه الحضارة ، لان المقصود بقيامها خدمة الانسان وتوفير راحته على شتى المستويات. ومن هذا المنطلق فان المراة العربية المعاصرة مدعوة لوعي الحضارة العصرية وتأطيرها وعدم الانتماء اليها . ولقد كان الغرب كله يفيد من الحضارة العربية الاسلامية ، ويرسل بعثات طلابية للاندلس والشمال الافريقي وصقلية وغيرها ، لكن تعامله معها لم يصل

ـ 91 : الانسان ذلك المجهول ص 11 .

ـ 92 : نفس المرجع ص 37 .

الى حد الانتماء اليها سيكولوجية وفكرا وسلوكا . فالى ذلك المستوى يجدر بالمرأة العربية المعاصرة أن ترتقي حفاظا على هويتهـــا .

ان مكمن الداء ، والعقبة الكاداء أمام أي تغير على اي مستوى هو التغريب الحضاري . هذا التغريب الذي تنتمـــي من خـــلاله الـــذات كماهية والتاريخ كهوية ، والذي يكرس سوء التعامل مع الاخـــر « الاعلى حضـــاريـــا » .

لقد فقه ابن خلدون الى ذلك ، حيث يقول في مقدمته مفســـرا خلفيات هذه الظاهرة : « ان النفس أبدا تعتقد في من غلبها وانقادت اليه : اما لنظره بالكمال بما وفر عندها من تعظيمه ، أو لما تغالط به من ان انقيادها ليس لغلب طبيعي ، انما هو لكمال الغالب فاذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقادا ، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به ، وذلك هو الاقتداء .

او لما تراه ـ والله أعلم ـ من ان غلب الغالب لها ليس بعصبيـــة ولا قوة باس ، وانما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب ...

ولذلك ترى المغلوب يتشبه ابدا بالغالب في ملبسه ومركبـــه وسلاحه ، في اتخاذها وأشكالها وفي سائر أحواله » (93) .

ـ 93 : المقدمة ص 147 تاليف عبد الرحمن ابن خلدون دار احياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان الطبعة الثالثة .

والامر نفسه صحيح بالنسبة للمرأة العربية المعاصرة ، فهي تعظم الغرب (ما هو غربي) ، وتعتقد فيه الكمال ، وتتوهم ان تقليده عبر الانتماء اليه تصورا وسلوكا ... انعتاق من أزمة الحضارة العربية الاسلامية . وهي في الوقت الذي تريد أن تثبت ذاتها تسقط في الاستلاب ، حيث لم تبحث عن ذاتها ، الا في ذات الاخر وبالنتيجة فقدت ذاتها وسقطت الهوية في يد الاخر .

ان المسؤولية الحضارية تقتضي من المرأة العربية المعاصرة وعي ذاتها ووعي الاخر ، وتحديد العلاقة بين الانا والهو ، وبين الانا والواقع بشكل يضمن للذات تحقيق تلك المسؤولية المتمثلة اساسا في المساهمة وبفعالية في بناء حضارة عربية اسلامية في المستوى الذي نطمح اليه جميعا .

ولتعلم المرأة العربية المعاصرة ـ وهي على درب صياغة جديدة لذاتها ـ انه لن يهادنها احد ، ولكن الامل كبير في ان تنشك فيما هي عليه الان ، وتعيد النظر فيه اخذة ما يليق بها كأنثى ، وفي ان تحذر من مخططات اعدائها الرامية لتهميشها وتدميرها، وهي بعزيمتها ووعيها مدفوعة لان تقاوم دون الضياع : ضياع الذات والحضارة .

فهرس

- اهداء ..... ص 5
- مقدمة ..... ص 7
- مدخل ..... ص 11
- نقد النظرية الفرويدية ..... ص 16
- وقع النظرية الفرويدية على المراة الغربية ص 37
- المراة العربية المعاصرة ونتائج النظرية الفرويدية ص 41
- حول طرح نوال السعداوي ..... ص 50
- المخرج / المقترح ..... ص 57
- فهرس ..... ص 69

هذا الكتاب

- نقد النظرية الفرويدية في جانب اخذها موضوع المرأة
- وقع النظرية الفرويدية على المرأة الغربية المعاصرة
- المرأة العربية المعاصرة و نتائج النظرية الفرويدية
- حول طرح نوال السعداوي
- المخرج / المقترح

هذه هي اهم محاور هذا الكتاب ، مستهدفا من طرحها تفكيك البنية النظرية التي تقوم عليها ازمة المرأة العربية المعاصرة ، و كشف نوعية العلاقة بين الذات الانثوية والحضارة الغربية ، وتحديد الابعاد السيكولوجية المتولدة عن تلك العلاقة .

المؤلف

صورة الغلاف : مصطفى بن الحاج

رقم الايداع القانوني 178 / 1984

مطبعة مكاتب مكناس

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET